مُقَـدّمَة

العالم يَتَقَلَّص والصينُ تَنمو

توجَدُ الصينُ في كل مكان في هذه الأيام. يُغذيها اقتصاد كبير هو الأسرع نمواً في العالم، ويؤثر في حياتنا، مستهلكين، وموظفين، ومواطنين. وغَدَت عبارةُ «صُنِعَ في الصين» متداولة في كل العالم، مثل المال: فالبلاد تخيط ثياباً وتصنع أحذيةً وتجمع ألعاباً لأطفال العالم أكثر من أي بلد آخر. أما إذا ارتقينا السُلَّم التكنولوجي، فإننا نجد الصين قد صارت أكبر مصنع للأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، تضخ في أسواق العالم كمية من أجهزة تلفزيون، وأجهزة دي في دي DVD، وهواتف جوالة أكبر من أي بلد آخر. والصين ما تزال ماضية في صُعودٍ وتنتقل بسرعة وكفاءة نحو الصناعات التكنولوجية الحيوية والكومبيوتر. ولم يسبق لأي بلد أن قطع خطوات التنمية الاقتصادية دفعة واحدة بهذه المهارة. وليس ثمَّة بلد في العالم يتقن اللعبة الاقتصادية أكثر من الصين. ولم يَهزّ بلدٌ هَرَمَ الاقتصاد العالمي كما هَزَّته الصين.

ويُدرِكُ المُتَتَبِّعُ العادي للأخبار أن ثَمَّة أمراً عظيماً يلوح في أُفُق الصين. فالبلد يَصْنَع قطعاً لطائرات بوينغ 757 ويكتشف الفضاء بصواريخ صنعتها الصين. وفي الصين توجد بين 100 إلى 160 مدينة جاوز عددُ سكانها مليون نسمة (بينما لا يتجاوز العدد في أمريكا تسع مدن، وفي أوروبا الشرقية والغربية مجتمعتين 36 مدينة). وتشتري الصين الآن حقول النِّفط في أنحاء العالم، وتُوَقِّع اتفاقيات شاملة لتوريد النِّفط والغاز مع شركات سعودية وروسية. وتشتري الصين (خردة) حديد العالم، وكميات هائلة من الفولاذ، لتُحَوِّلها إلى منتجات تباع في مختلف أصقاع العالم. ويُعِدُّ البلدُ نَفْسَه بِدأبٍ دون كلَلٍ ولا تَوَقُّف لمستوى أعلى

مــن التصنيع. ويُصَدِّر أجهزة كومبيوتر تحمل علامات تجارية صينية. وتشــهد الصين اليوم تدفقاً هائلاً لرؤوس الأموال الصناعية. فهناك يستثمر العالم ماله. وتمد الصين أسلاك الألياف الضوئية [في شبكة اتصالاتها] سِراعاً. وقد عَمِلَت الصين بِعَزْمٍ وشدة معاناة إلى حد بعيد لكي تتخطى وتقفز من الاقتصاد الزراعي إلى دولة صناعية متقدمة في ظل ماو تْســي تونـج Mao Zedong، وهي الآن تقفز فــوق كثير من تكنولوجيات الدول الصناعيــة الناضجة. فنظامها الهاتفي لاســلكي في معظمه وبعضه فقط ســلكي، وكثير من مدنها الكبرى ستتعم قريباً بأعظم أنظمة النقل السريع تطوراً في العالم. وإليكم هاتين المقارنتين، وكلاهما واقع حقاً: تشــرب الصين الحليب هذه الأيام. وإن أطول لاعب وسط في رابطة كرة السلة، ياو مينـج Yao Ming، صيني.

لقــد كان صعباً، فيمــا مضى من الأيام، إطعام ذلك العدد الهائل من ســكان الصين وتشــغيلهم. أما الآن، فلابد من النظر إلى خمس البشــر [سكان الصين] نظرة جديدة مختلفة: فهم أكبر سوق عرفه العالم، وزبائن سيتي بانك Citibank، وديزنيDisney، ونوكيا Nokia، وجي إي GE [جنرال إلكتريك]، ومايكروسوفت Microsoft. وكأنهم الجزء الرئيس الحاسم في النظام القادم.

وإنــك وإن لم تكن ممن يقرؤون الصفحات الاقتصادية، ســترى أثر الطفرة الاقتصادية الصينية يَضرِبُ بكل السُبُل الظاهرة والخفِيَّة التي يمكن أن نشهدها في واقعنا اليومي:

- إنــك إن أبديــت اهتماماً بالصــين لصديق من أصدقائــك القدامى يملك مصنعاً للعدد الصناعية تَجِده يقر بأن مصنعه، الذي أسســه أبوه فأعطى حياة هنيئة لثلاثة أجيال من أسرته وقدم أجوراً جيدة لمئات العمال، «يقتله أولئك الأشخاص [في الصين]».
- وإن تحدثت مع سَبَّاك العائلة، تجده يشكو من قضاء يومه في استبدال قطع صينية مكسورة، ثم يخرج من حقيبته قطعة غيار صينية ويقول إنها أفضل،

ويضيف خجلاً: «لقد صاروا الآن أحسن حالاً، وهذا ما يمكننا أن نحصل عليه اليوم دون أن ننفق كثيراً من المال».

- وإن صادفت أمَّ أحد زملاء ابنتك في المدرسة الثانوية، وكنت تلقاها في السنوات الماضية في حفلات أيام العطل حيث تعزف ابنتاك على آلة الفيولا. فقد هاجرت الأم إلى الولايات المتحدة من الصين سنة 1995م لِتَدرس الفيزياء الساكنة، وهي الآن باحثة في كلية طب محلية. تقول: إنها عائدة إلى الصين لتتابع هناك تجارة لصديق يعمل على تطوير برامج لآلات تصوير بالرنين المغناطيسي MRI وسواها من أجهزة طبية عالية التكنولوجية. وإن سألتها عن أبحاثها في المستشفى؟ تقول: إن الفرص اليوم في الصين أعظم من أن تُفَوَّت، ولا تريد أن تندم فيما بعد.
- وإن ذكرت هذه القصة لصديق آخر، باحث له شهرة عالمية ويَدْرُس حياة الخلايا، فسوف يقول لك إن أقسام البرامج الحيوية في الجامعات الأمريكية تعمل الآن، في جوهرها، لتنقل المعرفة من شيوخ اليهود إلى نساء الصين الشابات.
- وإن عبرت الشارع إلى مخزن يفتح طوال الليل تملكه أسرة من المهاجرين الفلسطينيين، فتجد وراء النُّضُد، حيث كانت تعرض السجائر، عشرات القطع المتممة لأجهزة الهاتف الجوال بِسِمات تجاريةٍ مختلفة – من بطاريات، ومآخذ للسيارة، وسماعات، وعلب – ليس فيها ما يتجاوز ثمنه 12 دولاراً. وترى الإقبال على الشراء منها كبيراً، كما يقول موظف الصندوق.
- وإن لقيت أحد أصدقاء المدرسة الثانوية المتميزين الذي كان يستعمل نظارة طبية سميكة، تجد أنفه لا تعلوه نظارة الآن. ويُدَرِّس الآن اللغة الإنجليزية في مدرسة كبيرة لتعليم اللغات في شنغهاي، وقد عاد إلى الوطن يتباهى بنتيجة العملية الجراحية التي أجريت لعينيه بالليزر لقاء 600 دولار في عيادة صينية حديثة جداً، وهذا عِشْرُ ما يُكلفه إجراؤها في أمريكا.

- وإن تناولت طعام الإفطار في مطعم صغير في سانت جوزيف بِميتشجان St. Joseph، Michigan. تجد حَوْلَ إحدى الطاولات أربعة رجال، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والستين. وتجدهم يرتدون ثياباً مثل لباس عمال المصانع، غير أنهم يجلسون في العاشرة صباحاً معاً يناقشون أمر صرف عمال من الخدمة في مصنع مَحَلي لصُنع أقراص المكابح لشركة بوش Bosch الألمانية العملاقة لصنع قطع غيار السيارات التي تزيد من طاقات إنتاجها في الصين. تقول الشركة: إنها تستغني عن أُلوف العاملين في مصانعها في جميع أرجاء الولاية كي تبقي قدرتها على المنافسة. ويأسف الرجال لعدم توفر فرص عمل كثيرة فيها. كانت وِرْلبول Whirlpool وكلارك للمعدات Clark Equipment وسواهما من مصانع أخرى راسخةً وناشطةً في المنطقة، غيرأنها أقفلت مصانعها الآن، فصارت هياكل فارغة لما كانت عليه من قبل.
- وإن رأيت مَتاجر أرماني إمبريوم Armani empeorium في فيا مَنتزوني Via Manzoni في ميلانو، عاصمة الأزياء الإيطالية، وراجعت قائمة فروعها في جميع أرجاء العالم تجد فيها شنغهاي.
- وإن قصدت أحد المطاعم الصغيرة المُعتمة في حي صيني [في أمريكا] تجد في الزاوية شاباً صينياً، قصيراً، وسميناً، وقوياً، لَوَّحَتْه الشمس، يبدو حائراً كما لو أنه جاء ليعمل في فترة ازدهار السكك الحديدية الأمريكية قبل قرن مضى. تجده يَسْتَنِد إلى صرة كبيرة، لُفَّت بلفافة بلاستيكية ورُبِطَت بشريط من السلوفان، ربما تحوي كل ما يملكه في هذه الدنيا. إنه مهاجر من ملايين المهاجرين الصينيين القرويين المكتومين الذين وجدوا طريقهم –ربما بمساعدة أحد المهربين – بعيداً عن مرافئ الصين التي كانت مزدهرة في الماضي. وسيُنافِس الآن للعمل في أدنى درجات الاقتصاد المحلي الأمريكي.

obeikandl.com

- ويُريك أحدُ المقاولين منزلَ زبونة جَدَّدَت الحمَّام الرئيس في منزلها. فاستَبْدَلَ لها سطح نضد قديم من الفورمايكا برخام أزرق داكن ذي حافة مشطوفة مزخرفة كتلك التي تراها في مُنْتَجَع في منطقة البندقية [في إيطاليا]. سوف يرى عينيك تَتَّسعان فَيَنصحك أن تَفعَلَ ما فَعَلَت، قائلاً: إنه رخام إيطالي، وإنه باهظ الثمن، غير أنه يستَحِق الثمنَ المطلوب. وبعد أن تحتج على ثمنه الباهظ، تذهب معه في شاحنته إلى فناء للخشب. وتجد فيه صناديق ضخمة من الجرانيت المقصوص والمُعدّ للمطابخ، والحمامات، ورفوف غرف الجلوس. تجدها جميعها مُلَمَّعَة ومصَمَّغَة. ويقول لك المقاول: إن رأيت إحدى هذه المسطحات مناسبة لك كما هي، فإن ثمنها يبلغ 450 دولاراً بدل 8000. ويقبل عليك صاحب الفناء قائلاً: عليك أن تشتري ما تريد قبل أن تَنْفَد، فالصناديق هذه لا تبقى في المخزن إلا يوماً أو بعض يوم، لا تَلبَث أن تُباع. وقال: إنه يبيع هذه المسطحات منذ سنة، وإن رجلاً من الصين قد زاره وقال: إن لديه ثلاثة مقالع يستخرج منها الحجارة ويصقلها. وقد جربها لتكون مناسبة، لكنه لم يعد يَستطيع الحصول على ما يكفي منها لتلبية المطلوب.
- وتستيقظ في صباح يوم في سانتا بَربَرا في ولاية كاليفورنيا؛ لتجد السماء كما لو أنها دُهِنَت بِدِهانٍ أبيض لامع. وتقول صحف الصباح إن أشعة الشمس تخادع سحابة غبار حملتها الرياح فوق المحيط الهادي من الصين. تحمل السحابة ذرات التراب من أرض مُزَحْرَجَة (أزيحت أحراجها) مختلطة بملوثات زرنيخية وصناعية أخرى من مصانع البلاد.
- وعليك شراء سروال ليفي Levy من مخزن وول مارتWal-Mart، فهو أقل ثمناً من سروال اشتريته منذ عشرين سنة.
- وتدعوك زميلة في العمل إلى «حفل حافظات نقدية» وتقول إنها صديقة صاحبة الحفل، وهي مضيفة في شركة يونايتد للطيران United Airlines.

لقد زُيِّنَت شــقتها بمصابيح ورقية ووســائد حريرية، وكُدِّسَت فيها حقائب يدويــة صنع لوي فــيتون Louis Vuitton، وبــراداPrada، ومعاطف بُرْبِري Burberry، وســترات من فِراء صنع نورث فِيْس North Face، ومعاطف جلدية قصيرة صنــع تِمْبِرلاند Timberland، ومنتجات رالف لورِيْن Ralph Lauren، وأوشــحة شانِيْل Chanel. وتجد على طاولتها حقيبة تلمع فيها ســاعات رولكس Rolex وبلجــاري Bulgari، وكارتييه Cartier. وتقــول لــك «خذ زجاجة كولا من الثلاجــة. انظر فيما حولك. وقدم عرضاً للشــراء. فكِّر في الأســعار الرخيصة فهذه كلها نماذج مقلدة [مُقَرصَنَــة]. اخرج وفي يــدك نورث فِيْــس North Face بـ 20 دولاراً وســاعة جديدة بـ 35 دولاراً. لقد ضاعفت مالها. إنك لن تقع عينك على اسم المصمم بالنظرة التي كنت تنظرها من قبل.

- وادخل بســيارتك الهوندا ســيفيك Honda Civic محطة وقود. عندما يكون ثمن الجالون 2.30 دولاراً فإن ملء خزان الوقود سيكلفك 30 دولاراً.
- واذهب بســيارتك عبر هاوْتُن Houghton في ولاية ميتشجان وهي بلدة نائية في أعالي شبه الجزيرة البارد من الولاية. توقف عند مكتبة الطلاب في كلية ميتشجان التكنولوجية. ســوف تجد على طاولة المؤلفين المحليين كتــاب Being a Graduate Student in the U.S. ألَّفــه اثنان من التلاميذ الصينيين في الجامعة. ويقول موظف الصندوق إن الكتاب يحقق مبيعات جيدة في الصين. واســتوقف أي طالب آســيوي في حرم الجامعة واسأله: كيف سمع بكلية ميتشجان التكنولوجية؟. سيقول لك: إن لجامعته في بِيْجِنْج علاقة قوية بالكلية وإن أساتذته حدثوه عنها. وإن سألته إن كان يحب الدراســة هناك؟ فيقول: إن ميتشجان باردة، وإن الطعام رديء، وإنه وجد صعوبة في التكيف مــع الآخرين إلا مع الطلاب الصينيين، وعددهم 140 طالباً. غير أن التعليم التكنولوجي فيها ممتاز.

obeikandl.com

- وتوقف عند مخزن يبيع حوائج السيارات لشراء سائل تنظيف زجاج السيارة الأمامي. ستجد نصف المخزن قد تحول إلى معرض للدراجات النارية (سكوتر scooter) صينية الصنع، بعضها يشبه نصف هارلي [هارلي ديفيدسُن] half-Harleys، وبعضها الآخر يشبه دوكاتيس Ducatis، ومعظمها يكلف أقل من 300 دولار.
- وإذا حضرت عشاءً في منزل خبير يجمع القطع الفنية، تجد على الحائط صوراً طول الواحدة منها 120 سم لأطلال مدينة صينية. وينصح صاحب البيت بالاستثمار في الفن الصيني المعاصر، فإن الاهتمام به يزداد اليوم في العالم، وما إن يبدأ الصينيون أنفسهم بالشراء حتى ترتفع الأسعار ارتفاعاً هائلاً.
- وارحل إلى بارِيس لتشاهد معالمها المشهورة وتجَوَّل في الشانزِليزيه Champs-Elysees، الشارع الذي يحافظ الفرنسيون على هويته الوطنية بغيرة شديدة. غير أن «أجمل شارع في العالم» يستسلم أول مرة في تاريخه لحدث ثقافي غير فرنسي، إنه استعراض صيني يضم سبعة آلاف موسيقي، ومهرج، وراقص تنيني يرتدون لباسهم التقليدي. وقد أُنير في تلك الليلة برج إيْفِل Eiffel Tower بالأنوار الحمراء وملأت الألعاب النارية السماء احتفالاً بالسنة القمرية الصينية الجديدة. وتأتي تلك الاحتفالات في وقت ينتقد الفرنسيون انتقاداً حاداً حلفاءَهم الغربيين، والولايات المتحدة وبريطانية العظمى. ويصادف الاحتفال زيارة قادة سياسيين صينيين لفرنسا لتوقيع اتفاقيات إستراتيجية واقتصادية واسعة.
- وقَرِّر أخيراً أن تتخلى عن كاميرا للتصوير بالفِلم قديمة واغْطُس في مجال التصوير الرقمي digital photography. فمحلات التصوير تبدي اهتماماً كبيراً بآلة صغيرة من صنع نيكونNikon، هي معجزة هندسية تستطيع أن تصور بسرعة وتسجل مشاهد واضحة لأماكن ضعيفة الإنارة،

obeikandi.com

فهذه الكاميرا تحبط أفضل منافسيها من كاميرات الفيلم، وتكلف نصف ما تكلفه الآلات المشابهة قبل سنة. يثق الزبائن المخلصون لنيكون Nikon بجودة منتجاتها وتصميمها المبتكر. فهي إحدى العلامات التجارية اليابانية التي أسهمت في بناء سمعة ذلك البلد في التفوق الصناعي. إن الإمساك بالكاميرا، والتقاط بضعة صور تجريبية، يؤكد أنها منتج جديد من الطراز الأول لا ينتجه سوى اليابانيين. تَفَحَّص الكاميرا بدقة، فإنك تجد عبارة «صنع في الصين» مكتوبة عليها بحروف صغيرة. ويكشف البحث على شبكة الإنترنت أن الكاميرات الرقمية التي تنتجها كثير من الشركات اليابانية، والأمريكية، والكورية تصنع في المصانع الصينية نفسها.

- وإذا زرت عَمَّك المريض العائد لتوِّه من برنامج إعادة تأهيل إثر نوبة أخرى، ولم يزل عاجزاً عن الحركة دون مساعدة، فسوف يُعَرِّفك على ميناردو Menardo المشرف الصحي الذي أرسلته وكالة التمريض. وميناردو هذا يرتدي ثياباً لائقة، ويتأنَّق في تصفيف شعره. سوف يقول لك في المقابلة الأولى إنه من الفلِبين وإنه يعمل في التمريض منذ أربعة أشهر. ويشاطر أخته العيش هنا في أمريكا في شقة تبعد ساعة بالسيارة، ويملك بيتاً كبيراً في وطنه وكان لديه خدم. ويُخْرِج من حقيبته منشوراً دعائياً عن عمله السابق، إنه مصنع في جزيرة سِبو Cebu Island يوظف خمسين عاملاً يصنعون حقائب من القش والخيش (الجوت). ويقول إنه فقد عمله لأن المصانع الصينية تصنع الآن حقائب مماثلة بسعر أقل مما يرى ميناردو أنها تُكَلِّفه. إنها أشغال يدوية، وقدكان عُمّاله يتقاضون 30 دولاراً في الأسبوع. ويتذمر من أن العمال الصينيين يتقاضون ثلث ذلك المبلغ ويعملون ساعات أطول. وهو الآن يفرغ مباول المرضى. ويأمل أن يستطيع البدء بعمل جديد بما يجنيه من أجره الأمريكي، غير أنه يرى التغلب على الصينيين في الأسعار صعباً.

obeikandl.com

إن الاقتصاد الصيني المعجزة يستطيع أن يأتيك من طرق شتى، ومن كل حدب وصوب. وما إن تصبح الصين تحت مرمى البصر، حتى يَصْعُب ألا تراها تملأ المكان.

قوة العمل العملاقة

إن وراء صعود الصين الاقتصادي السريع في السنوات الخمس والعشرين الماضية حقيقة أساسية هي تعداد السكان الهائل. فالأعداد تطغى في حجمها على جميع أوجه الحياة في البلاد تقريباً. حيث تُؤوي الصين قرابة 1.5 بليون نسمة، وهذا يجعل تعداد السكان الرسمي البالغ 1.3 بليون نسمة أقل من الحقيقي بما يقرب من عدد سكان ألمانيا، وفرنسا، والمملكة المتحدة مجتمعين. وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، نجد أن عدد الصينيين غير المحسوبين، لوأنهم كانوا في بلد منفصل، لكانوا البلد الخامس في تعداد السكان في العالم.

وإن الأمر الذي يلفت الانتباه هو أن الصين لا تؤوي أرخص قوة عمل في العالم. وإن كان أجرالعامل الصيني خمساً وعشرين سنتاً في الساعة، فإنه يكلف أكثر مما يكلفه العامل في أفقر بلدان جنوب شرق آسيا أو إفريقية. ففي الزوايا الأكثر بؤساً في العالم، يحمل الأطفال البنادق ويسيرون عبر حقول الألغام لقاء أجر لا يتجاوز دولاراً واحداً في اليوم. إن الصين هي ورشة العالم، فهي تتربع على جزء مُسْتَقِر نسبياً من أجزاء الكرة الأرضية وتقدم لصناعيي العالم قوة عمل صناعي موثوق بها، وطيِّعَة، وقادرة، يسوسها نظام تفرضه الحكومة.

وإن الأثر الكبير الآخر الآن هو هجرة مئات الملايين من المزارعين من الريف، بعد أن سمحت الحكومة لهم بالمغادرة. والحقيقة هي أن تَبَنِّي البلد لرأسمال السوق خلال العقدين الماضيين وانتهاء دعم الحكومة للمزارعين يشكلان تحالف قوى تطرد الفلاحين من الأرض، في هجرة هي الأكبر في تاريخ البشرية. وهي أيضاً الأقل دقة في إحصاء عدد الأفراد، حيث يتراوح تقدير عدد الذين غادروا

obeikandi.com

إلــى المدن بحثاً عن عمل بين 90 و 300 مليون، إنها، في أقل التقديرات، تعادل القوى العاملة الكاملة في الولايات المتحدة. وإذا ذهبت إلى أعلى التقديرات، فإنك تجد العدد يتجاوز القوى العاملة الأمريكية والأُوروبية مجتمعة. وسيعيش نصف الصينيين بحلول ســنة 2010م في مناطق مدينيــة، يكون بعضهم في حاضرات مدينية يربو عدد سكانها على المليون لم تكن موجودة قبل سنوات.

إن مــا تعنيه هذه الأرقام هو أن القــوى الإنتاجية لآلة الصناعة ذات الكلفة المنخفضة في الصين، إلى جانب الشهية المنفتحة لمستهلكيها الذين يزيد عددهم على بليون، جعلا من الشعب الصيني الثروة الطبيعية الأكبر على كوكب الأرض. وإن طرائق استغلال الصينيين والعالم لهذه الموارد هي التي ستحدد شكل اقتصادنا وكل اقتصاد آخر في العالم بالقوة التي كانت للتصنيع والتوســع الأمريكي خلال مئة سنة مضت.

ما عَرَفَه العُمّال الأمريكيون
في مصنع هارلي Harley للدراجات النارية

إن آثــار الصين على العالــم عظيمة جداً – وربما تكــون انفجارية – حتى يصعب على المعنيين بمشــاهدة الصورة الكاملة تقديــر أبعادها. ذلك، في حَدِّه الأدنى، كان انطباع العمال والمديرين في مصنع هارلي ديفيدسُن Harley-Davidson في مِلووكي Milwaukee عندما قَدِمَ ثلاثة من المسؤولين الاقتصاديين الأعظــم أهمية فــي إدارة بوش في أواخر صيــف 2003م. وصلت وزيرة العمل الأمريكية إلِيْن تشــاو Elaine Chao ووزير الخزينة جون سنJohn Snow، ووزيــر الاقتصاد دونالد إيْفنْس Donald Evans بالحافلة ليعلنوا عن انقلاب في الاقتصاد بناءً على ماضي إحدى شــركات التصميم الأمريكية. وافترضوا أن مصنعي «هوج Hog» للســترات الجلدية، المتفرديــن الذين ينتجون أكبر دراجة نارية أمريكية، سيرقصون على نغمات الإدارة التي تدعي مناصرة العمل.

غير أن الجميع لزم الفتور. فقد كانت هناك جبهة باردة تعصف من الصين. لقد فقدت الولايات المتحدة 2.9 مليون فرصة عمل صناعي خلال خمس سنين خَلَت. فَفَقَدَت وِسْكُنْسِن Wisconsin تسعين ألفاً، أو سُدُس فرص عملها الصناعية منذ سنة 2000م، وكان ثمَّة رأي قوي لدى الجمع في هارلي بسبب ذلك. فقدكانت الشركات التي كَبُروا معها تتلاشى، بينما تتجه الطلبات وفرص العمل إلى ما وراء البحار. ولم تجد إلِيْن تشاو المرتبكة جواباً، عند ذكر التحدي الصيني، إلا أن تقول إن جنود الحرس الوطني الأمريكي الذين يخدمون في العراق سيجدون فرص عمل مضمونة عند عودتهم. وبدا أن جون سنو لا يُمَيِّز بين العملة الصينية يوان Yuan والعملة اليابانية ين Yen. وساد الانفعالُ الجمهورَ الذاهل. فلم تعد الضرائب، ولا عجز الميزانية أو تكاليف الحرب على الإرهاب هي التي تقض مضجع الحياة الاقتصادية، كما يرى الخطباء، وإنما هي الصين. أما المجتمعون، فقدكان التنافس مع الصين هو الذي يُحَدِّد إن كانت وِسْكُنْسِن قادرة على التمسك بالقاعدة الصناعية التي كافحت لإحيائها.

وانطلق الوزراء في جولتهم في المِدْوِسْت (الغرب الأوسط) Midwest إلى عشرات المحطات. وكانت تواجههم طوال الطريق أسئلة غاضبة عن الصين. كانت الجموع تحمل مكبرات صوت يشحنها الغضب. وكان بين الغاضبين عمال ومديرون على حد سواء، من اليمين واليسار. وربما كان أعلاهم صوتاً جمهور الناخبين الجمهوريين، وأصحاب الصناعات الصغيرة الذين يناضلون تحت وطأة قوة الإنتاج النامية لأكبر بلدان العالم سكاناً.

جرت هذه الأحداث قبل ثمانية عشر شهراً من نشر هذا الكتاب. فلم يعد اقتصاد الصين اليوم يأخذ قادة الحكومة على حين غرة. فماذا تراهم فاعلون الآن، بعد أن صاروا يعلمون، هذا ما ننتظر معرفته، وبِخاصَّة أن ردود الفعل الشعبية تجاه الصين تتغير باستمرار – وغالباً على أساس البرامج السياسية والاقتصادية الأمريكية المنافسة. تكون الصين، في لحظة، الخطر الأكبر الذي

يُهَدِّدُنا، وفي لحظة تالية تصبح صديقاً. إنها تَمْتَصُّ فرص العمل الأمريكية؛ وهي ضرورة لقدرتنا على المنافسة. فالصين في نظر العالم المَصْنَع، وهي أكبر فرصة للسوق. وقوة الصين الصناعية تَسْتَنْزِف فرص العالم النامي، غير أن اقتصادها الجائع يَشُدُّ البلدان الأفقر إلى أعلى. تصـدر الصين الانكماش؛ وتذكي ارتفاع الأسعار. الصين سوق تزدهر؛ وسوف تنفجر.

إن حقيقـة الصين، مثل جميع البلدان الكبيرة، هـي أن تناقضاتها حقيقة. فليس ثمة جواب سهل في الأفق، وإنما مجرد قوى تغييرعملاقة.

ماذا تقول الأرقام – وماذا تُخفي؟

ينمـو اقتصاد الصين سـريعاً بـكل المقاييس. فتقارير التقـدم الاقتصادي السـنوي للدول تقيس النمو بالناتج المحلي الإجمالي، والقيمة الإجمالية لجميع السلع والخدمات المتداولة ضمن اقتصاد بلدٍ ما. فقد كان الناتج المحلي الإجمالي للصين سنة (2003م) (1.4) تريليون دولار. وكانت الصين، حسب ذلك المقياس، تحتل الموقع السابع في حجمها الاقتصادي في العالم. وما زال اقتصاد الولايات المتحـدة الأكبر في العالـم، إذ كان الناتج المحلي الإجمالي لها سـنة (2003م) (10.1) تريليون دولار، أي سـبعة أضعاف حجم اقتصاد الصين. (ويمكن قياس الاقتصـاد العالمي بناتجه المحلي الإجمالي؛ إذ وصل مجموعه إلى 36.4 تريليون دولار سنة 2003م).

وثمـة ظروف ملطفة في أرقام اقتصاد الصين. إذ يُشَـكُّ في معظم الأرقام الإحصائيـة الصينية، لما يتَّصِف الصينيون بصفـات المراوغة. كان التذمر فيما مضى دائماً من المسـؤولين الذين يرفعون أرقامهم لِيوهِموا بِحُسْـن أدائهم. أما الآن، فتقـول جوقة المُرْتابين إن الأرقام مُفْرِطة في انخفاضها. فمخططو الصين المركزيـون لايفتؤون يوجهون أموال التنمية بازدياد إلـى المناطق التي تُحَدَّد بأنها مناطق فقيرة رسـمياً. وهكذا، فإن محافظات الشاطئ الشرقي من الصين التي

تجني فوائد جُلّى من مزايا الإصلاح الاقتصادي، تخفي نسب نموها العالية كي لا تذهب عنها موارد الحكومة إلى أماكن أخرى. أما المناطق البائسة فلديها دوافع طبيعية؛ إنهم يجهدون في الحفاظ على تصنيفهم وإن كانت الأعمال تسير في التحسن. وربما كان ذلك سبب عدم تطابق الأرقام التي تجمعها الحكومة المركزية من المقاطعات مع الأرقام التي تقدمها الحكومات المحلية والإقليمية في نشراتها الخاصة. إن اقتصاد الصين أكبر بـ 15 بالمئة، قياساً بالأرقام المحلية. وقد أحرج التفاوتُ الإحصائي الحكومةَ المركزية حتى اضطرَّت إلى محاكمة عشرين ألف مسؤول محلي، بتهمة الاحتيال، كانت لهم يد في تقديم تلك البيانات.

وتتضمن الأرقام الحكومية الاقتصاد الصيني النظامي فقط. أما اقتصادها تحت الأرضي التجارة البعيدة عن الرقابة، الذي يتألف من أعمال تجارية مرفوضة أخلاقياً وأكثر دنيوية تنقصها مباركة الحكومة (والضرائب)، فإنه هائل يصعُبُ إحصاؤه.

وقد يكون تصنيف الصين في الموقع السابع منخفضاً جداً لأن عملة الصين مثبتة بالدولار. وإن عملات العالم الرئيسة الأخرى ترتفع وتنخفض مقابل الدولار حسب أوضاع السوق. وقد جرت العادة في بلد بقوة الصين أن يرى قيمة عملته الوطنية ترتفع، لكن الصين تستخدم القوة الهائلة لاحتياطيها من العملات الصعبة لتبقي السعر العالمي لليوان Yuan متماشياً مع الدولار مهما كان سعر السوق. ولو لم يتراجع الدولار أمام اليورو أو أي عملة عالمية أخرى خلال السنوات الأخيرة، لكان موقع الصين أعلى درجة أو درجتين.

ويرى بعض المحللين أن موقع الصين أعلى من ذلك بكثير. ويأخذون في اعتبارهم مقدار ما يشتري الدولار في البلاد فعلاً، وهو أكثر كثيراً مما يشتريه في الولايات المتحدة، وأوروبا، واليابان ومعظم بقاع الأرض الأخرى. وإن بعض السلع – كالآلات اليابانية، والنِّفْط السعودي، والأزياء الفرنسية، والأدوية السويسرية، وساعة من وقت بروفِسُر أمريكي مختص في التسويق – كلها

لها أسعار قياسية عالمية. غير أن العرض والطلب الذي يحكم معظم الاقتصاد الصيني – القوة العاملة، والغذاء، والإيجار، والآجُر، والأطباء، والثياب، والألعاب المصنوعة في الصين – يخضع جميعه لموازينها المحلية الخاصة. ويشتري الدولار في الصين ما يشتريه حوالي 4.70 دولار في إنديانابولِس Indianapolis. وإن التفاوت الذي يسمى خطأ «تعادل في القوة الشرائية» يسوى في تقدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لمكانة الصين بين الاقتصاديات العالمية. ويبدو اقتصاد الصين الذي يبلغ 1.4 تريليون دولار، في حسابات وكالة الاستخبارات المركزية CIA، أقرب إلى اقتصاد ناتجه المحلي الإجمالي في حدود 6.6 تريليون دولار. ويمكن القول، بتعبير أصح، إن اقتصاد الصين أقرب إلى ثلثي حجم اقتصاد الولايات المتحدة من سبعه.

وهناك نسبة النمو في الصين، وسرعتها في المستقبل الاقتصادي. إذ تريد الدول أن تضيف قدر ما تستطيع إلى ناتجها المحلي الإجمالي في معظم الحالات. وكان نمو الاقتصاد الصيني كبيراً على مدى خمس وعشرين سنة خَلَت، حتى أَخَذَ صفات أسطورية لإحدى مزارع ماو Mao النموذجية. وكانت الولايات المتحدة، التي تميل جميع الدول لقياس أنفسها مقارنة بها، تحظى بأقوى نسبة نمو بين الديموقراطيات الصناعية، التي تشكل الدول الصناعية السبع، على مدى سنين طويلة. وإن نمو الولايات المتحدة مرتفع ارتفاعاً مريحاً فوق متوسط عضوية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وعصبة العالم الداخلية التي تتألف من ثلاثين اقتصاد سوق ديموقراطي رائد تغطي مجتمعة ثلثي المردود الاقتصادي العالمي. وقد تراوح نمو الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة حوالي 3.3 بالمئة بين سنتي 1982م و2002م. ويرى سياسيو الولايات المتحدة في السنوات التي حققت نمواً يتجاوز 4 بالمئة سنوات رواج وازدهار عظيم، وفي السنوات التي تتجاوز 2 بالمئة سنوات مريحة، والسنوات التي يكون النمو فيها أقل من ذلك تكون سُمّاً سياسياً. ففي أمريكا اللاتينية التي تُعَد منافس الصين

فـــي صناعات منخفضة التكاليف، وفي التقـــدم الاقتصادي خلال الربع الأخير من القرن العشــرين، كانت، وســطياً، أســوأ مما كانت في المنطقة أثناء الكساد الاقتصادي الكبير. أما في الصين، فإن نسبة نمو كتلك التي في الولايات المتحدة تعد كارثة. ويقول المسؤولون الصينيون ينبغي أن ينمو البلد بنسبة تتجاوز 7 بالمئة في السنة لتوفر فرص عمل كافية للذين يدخلون سوق العمل بانتظام.

إن الصـــين ملتزمـــة بالنمو الاقتصادي حتـــى إنك ترى الصينيـــين يتحدثون كثيراً وكأنهم يســـتطيعون تحقيق ذلك بإرادتهم. إنه تفاؤل ضروري ذلك الذي يعم الأفكار الصينية الرسمية المتداولة.[1] ويقارن أورفيل شِل Orville Schell مؤلف كتـــاب Virtual Tibet وعميد كلية الصحافة في جامعة بِركلي Berkeley في كاليفورنيا، بين وحدة التركيز التي بدأها الصينيون ضد الرأسمالية ثم معها الآن. يقول شِـــل، ثَمَّة اســـتعداد في الحالين لإلغاء المنطق ورؤية مستقبل زاه فحسب. فكلا الحالـــين يقودان إلى المغـــالاة. فقد كانت الصين مســـتعدة، في حاضرها الرأســـمالي، للتغاضي عن الجانب القاتم من الحداثة، ورؤية التقدم الاقتصادي حلاً لجميع التحديات التي يواجهها البلد.

ولا يجمـــع الخبراء الاقتصاديون الصينيون على الثقة بأن مجرد الرغبة في النمـــو كفيلة بتحقيقه. بل على خلاف ذلـــك. فقد عمل المخططون الاقتصاديون الصينيون على إلقاء الثلج على آمال مواطنيهم الاقتصادية الكبرى. فهم يعرفون أن الإفراط في الحماســـة يـــؤدي إلى أوهام اقتصادية. غير أن الســـيطرة على قـــوة الاقتصاد الصينـــي الدافِقَة أمر صعـــب. وإذا كان للتاريخ أن يتنبأ بحاضر الصين إذاً لانْفَجَرَ اقتصادها منذ زمن بعيد. فإذا انفجرت الفقاعات عند تدافع المســـتثمرين وراء مشـــاريع كثيرة ليس لها قيمة اقتصادية حقيقية – إذ إن عدداً كبيراً جداً من المصانع تتســـابق نحو أســـواق حامية ذاتها، وثمَّة عدد كبير جداً من مشـــاريع البناء المحلية تجب تلبيتها، وعدد كبير جداً من القروض المصرفية الرديئة لمشاريع غير سليمة، وعدد هائل من الأسهم المُحَلِّقَة لشركات لا تاريخ لها

obeikandi.com

– عندها تستحق الصين أن تُصبح خراباً. وكلما طُرِحَت أسوأ التوقعات لاقتصاد الصين نَراهُ ينمو سراعاً، ويخلق صناعات أقوى، ويستورد ويصدر المزيد، ويجلب مزيداً من الاستثمارات الأجنبية.

وعندما قررت الصين إصلاح اقتصادها قبل جيل مضى، كانت نسبة النمو الرسمية 9.5 بالمئة. وربما تصعد البلدان سراعاً في مراحل مبكرة من الإصلاح الاقتصادي، وإنما ليس مثل الصين. فالصين مقبلة على مسيرة ثلاثين عاماً يتضاعف اقتصادها خلالها ثلاث مرات. إنه صعود ليس له مثيل في التاريخ الحديث. ولم يقاربه ازدهار اليابان أو كورية الجنوبية بعد الحرب. وإذا نظرنا إلى نسب النمو الاقتصادي الأخيرة في الولايات المتحدة، نجد أن لا بد للولايات المتحدة من خمس وعشرين سنة لكي تضاعف اقتصادها. ولو أن الولايات المتحدة، التي ازدهرت في الثمانينيات والتسعينيات، نمت بمعدل نمو الصين منذ سنة 1978م، لكان الاقتصاد الأمريكي في حجمه الحالي تقريباً مضافاً إليه اقتصادين اليابانيين. ويشير نيكولاس لاردي Nicholas Lardy من معهد الاقتصاد العالمي، إلى أن الصين نمت نُمُوّاً قوياً حتى في حال الركود الذي شهده الاقتصاد العالمي في سنتي 2001م و2002م.

وهكذا تجد نموَّ الصين يعطيها مكاناً أكبر من حجمها في الاقتصاد العالمي. فالصين ما زالت تصنع جزءاً من عشرين من كل شيء ينتج في العالم، غير أنها تلعب على الساحة الدولية دور مصنع جديد في بلدة صناعية قديمة. إنها تستطيع أن تُنفِق، وتستطيع أن تَتَنَمَّر على من هم أضعف منها، وتستطيع أن توظف وتحدد الأجور، وتستطيع أن تطرد المنافسين القدامى من أعمالهم. إنها تغير الطرائق التي يعمل بها الجميع.

ويميل الأمريكيون إلى التركيز على التفاوت الهائل في التجارة بين البلدين. إنه قلق ساهم الأمريكيون في خلقه بزيادة شرائهم المستمر من مصانع الصين النشطة. فقد باعت الصينُ سنة 2004م الولايات المتحدة بضائع تزيد قيمتها

162 بليون دولار عما اشـــترته منها. وبخلاف الحكمة الســـائدة، فإن العجز في الميزان التجـــاري مع الصين لا يعني أن الأمريكيين ينفقـــون دون الثروة الوطنية بسرعة تفوق ما أنفقت في أي وقت مضى. وهكذا كانت معظم مكاسب الصين مع المشـــترين الأمريكيين على حساب البلدان الأخرى التي اعتادت غواية الدولارات الأمريكية، وبخاصة الاقتصاديات الآسيوية الأخرى. ويجني الأمريكيون – والعالم – مزيداً من الحشـــو في الصفقة. وتكســـب الصين لأنها تســـتطيع أن تصنع ما يصنعه الآخرون بثمن أقل. إنها تُحَوّل ما كان مواداً غالية الثمن، كأجهزة أقراص DVD، والأدوات الكهربائيـــة، والســـترات الجلدية، إلى مـــواد نابضة رخيصة الثمن تنادي المشترين من رفوف المخازن. وإن كثيراً منا يجد بيوتنا تزدحم بأكوام من الألعاب الرخيصة، والإلكترونيات الاستهلاكية، والأدوات، والأحذية، وأجهزة الهاتف، والثياب لا يدركون أن هذه الأشياء ربما أتت إلى أمريكا من بلدان أخرى، وأن ســـبب هذا الفيض الذي نشـــهده هو أن الصين قد صـــارت المصنع الرائد لهذه الســـلع وتضرب الجميع بأسعارها. فصناعة الثياب في أمريكا، مثلاً، بدأت بالتلاشي زمناً قبل أن تبدأ الصين تجني الطلبات على حساب المصانع الآسيوية والأمريكية اللاتينية الأخرى.

ولصناعة المفروشـــات الأمريكية قصة أخرى. فقد اسْتَنْزَفَت الصين منفردة معظم قوتها. إنها تبين كيف تستطيع الصين أن تتبع أعمالاً خاصة يتميز بها بلد ما وتُهلِك القِسْمَ الأعظم منها في فترة وجيزة. (إنها تأتي الآن على جميع صانعي المفروشات الخشبية في العالم، فتعطي العالم رفوفاً للكتب وخزانات كبيرة يخزن فيها مشـــترياته الأخرى المصنوعة في الصـــين). إذ ارتفعت صادرات الصين من غرف النوم الخشـــبية فقط إلى الولايات المتحدة منذ ســـنة 2000م حتى ســـنة 2003م من 360 مليون دولار إلى ما يقرب من 1.2 بليون دولار. وخسرت القوى العاملة الأمريكية التي تعمل في مصانع المفروشات الخشبية خلال بداية التحول الصينـــي بقدر 840 مليون دولار وخمســـة وثلاثين ألف موقـــع، أو واحد من كل

ثلاثـة عمال يعملون في هذه الصناعــة الأمريكية. وتصنع الصين الآن 40 بالمئة من جميع المفروشــات التي تباع في الولايات المتحدة، وسيزداد هذا الرقم حتماً. وستستمر فرص العمل الأمريكية في المفروشات بالانخفاض.

غير أن إحدى مفارقات نجاح الصين في سوق المفروشات الأمريكية هي أن مصانع الصين قد أتقنت عملها في تسـليم المسـتهلك الأمريكي، وقدّمت جوهر التصميمات الأمريكية والأُوروبية على نحوٍ أفضل من الورشات الأمريكية. حتى نرى كبار بائعي المفروشــات، من مخازن مثل جي سـي بنـي JCPenney إلى المخازن المختصة مثل كرِيّت آند بارِل Crate & Barrel تعرض الآن مفروشات محفورة ومزخرفة بأسعار كانت قبل بضع سنين أسعار نماذج مفروشات «حديثة» أسهل صنعاً، تتطلب ساعات عمل أقل.

وأمــا البلدان الأخرى، فقد صارت الصين لهم ضــرورة كزبون ومُمَوِّل. فاليابان وألمانيــا تتمتعــان الآن بفائض تجــاري كبير مع الصين، فالصين أكبر مشــتر لآلات المصانع، وتحتاج إلى المعدات التي تصنعها ألمانيا واليابان – أجل – كي تصنع المعدات والأجهــزة الإلكترونية التي تصنعها ألمانيا واليابان. وتفلــح البلدان الغنية بالموارد إذ تبيع الصين المواد الأولية التي يعاد تشــكيلها في مصانعها، والطاقة التي تحتاج إليها لتزودها بالطاقة. فقد اشــترت الصين ســنة 2003م، بناء على تقدير ستيفِن روش Stephen Roach، كبير اقتصاديي مورجان ســتانلي Morgan Stanley، 7 بالمئــة من نفط العالم، وربع جميع الألمنيوم والفــولاذ، وثلث فِلِزّات حديد العالم وفحمه، و40 بالمئة من إسمنت العالم. ولعل المقبل أعظم.

الصدمة القادمة

وليس أكثر ما يُرعب من الصين أنها تبلي بلاء حســناً في الإنتاج الصناعي. فلا بــأس أن يفقد الأمريكيون تجارة المفروشــات أمام الصــين. ففي المخطط الأعظم للأمور تعد الطاولات والكراســي أمــوراً تافهة في الاقتصاد الأمريكي.

ويفقـد اليابانيون تجارة أجهزة التلفزيون. ويفقد الإيطاليون تجارة الحرير. ولا يسـتطيع الألمان المنافسـة في زينة عيد الميلاد. وسـيفقد الجميع، خلا الصين، مصانع النسيج والثياب. وإن أكثر ما يقلق الأمريكيين وغيرهم من الأمم هو حدّ خط المستقبل، حيث يطغى تحول التصنيع نحو الصين من كل حدب وصوب، ولا تُسْـتَثْنى من أولئك الولايات المتحدة. فتجارة البضائع الاسـتهلاكية تظهر على سـطح الاقتصاد العالمي وتسـهل متابعة حركتها. غيـر أن التحول الأكبر، الذي يكتسب زخماً الآن، يقع بين المنتجات التي يتعامل الصناعيون والمنتجون بها فيما بينهم: إنه عدد لا يحصى من المواد التي تكّون كل ما يُصْنَع، سواء أكان ذلك مئات مـن قطع تدخل في صناعة الغسـالات، أو الكومبيوتـر، أَمْ مئات أُلوف القطع في الطائرات. ثم هناك المنتجات الكبيرة كالسـيارات، والشاحنات، والطائرات، والسفن، وشبكات تحويل أنظمة مقاسم الهاتف، والمصانع، والغواصات، والأقمار الصناعية، والصواريخ. تسير الصين على درب هذه الصناعات أيضاً.

اتبع المال – إلى الصين

ولعل أحد الأسـباب الرئيسـة لنمـو الصين هو أن العالم يغذي رأسـمالها باسـتمرار. فقد أفاد معهد أبحاث اليابان للاقتصـاد والتجارة والصناعة Japan's Research Institute of Economy، Trade and Industry أن ثلـث إنتاج الصين الصناعي قد تَحَقَّق بفضل نصـف تريليون دولار من المال الأجنبي الذي تدفق إلى البلاد منذ سنة 1978م. وقد استثمر الأجانب في تجارة البناء في سـنة 2003م أكثـر مما أنفقوه في أي مكان آخر فـي العالم. وكانت الولايـات المتحدة تجتـذب معظم الأموال الأجنبية فيمـا مضى، غير أن الصين احتلت موقع الريادة سـنة 2003م، فجذبت 53 بليون دولار بينما أخذت أمريكا 40 بليون دولار. وتأتي مع المال المعرفة. ومازال الدور المحفز للأجانب في البلاد ينمو سـراعاً؛ إذ تسـتقبل الصين في كل يوم نهراً من والأُوروبيين، والآسيويين، والأمريكيين الخبراء في الصناعة، والأعمال المصرفية، والكومبيوتر، والإعلان،

والهندسة. وارتفع الاستيراد والتصدير الذي تقوم به شركات أجنبية تعمل في الصين في سنة 2003م حتى زاد 40 بالمئة. وتسيطر شركات أجنبية الآن على أكثر من نصف تجارة الصين، يستورد كثير منها سلعاً تدخل البلاد يصنعونها للتصدير. وقد نفخت الشركات الأجنبية حجم التجارة الصينية حتى صارت الصين ثالث بلد في التجارة العالمية، بعد الولايات المتحدة وألمانيا، وتتقدم الآن على اليابان.

وإن الحكومات التي تحاول أن تحمي موقع صناعاتها لتحمي حِرَفِيِّيها يجب أن تواجه الصين بما لديها من قوى عاملة غير عادية. فهل لعشرات الألوف من صناع القماش والمفروشات أهمية تذكر عندما تستطيع الصين أن تجمد الأدوية الأمريكية، ومعدات الاتصالات، وبضائع المزارع، أو أي صنف من أصناف المنتجات الضخمة التي تأمل الولايات المتحدة أن تصدرها؟ وثمَّة بلاد أضعف يداً. فمعظم بلدان العالم تنظر الآن إلى نمو الصين كآلة حساسة لنموها الاقتصادي. وإن إلقاء نظرة على الأخبار في أي يوم في البرازيل، وأُستراليا، وكندا، والمكسيك، وألمانيا، واليابان وأي مكان آخر في العالم تنبئ عن موازنة يومِيَّة عالمية تبقي الصين راضية لكونها عميلاً، وعلى كفاءة جيدة كمُوَرِّد، وبعيدة كمنافس.

أوامر من جبار

وبعد أن بدأت الصين نهجها الرأسمالي، تباينت الآراء في إمكان نجاحها واحتمالاته. وإن التقييمات السائدة الآن هي خليط متفجر من الغبطة، والخوف، والإعجاب، والسخرية. ويمتطي هذا الشعور موجات كبيرة من رأس المال، وخطط إستراتيجية لأعمال كبيرة وصغيرة، وحسابات سياسية هي الأخطر في عواصم العالم ومدنه. والإغراء هو الغوص في أعمال البلد نفسه. فهل حكومته حكومة حكيمة أم سلطة مجنونة فاسدة؟ وهل شعبه سعيد بتقدمه أم إنه مسحوق كمواطن ومُسْتَغَلٌّ كعامل؟ وهل تكسب الصين مزيداً من بَريق أم تغرق في أوحال

الصناعة؟ وهل تنهار مصارفها أم تنجح وتصبح لاعباً بما تستأهله بين لاعبي العالم؟ وهل يشق فلاحو الصين طريقهم بسهولة نسبية إلى مستقبل بلدهم المديني أم يثورون؟

هذه أسئلة تطرح نفسها، وليس ثمَّة شك في أن الشعب الصيني يستحق قلق حكومته والعالم واحترامهما. وأما أربعة أخماس سكان العالم الذين لا يعيشون في المملكة الوسطى، فإن ثمَّة حقيقة هي أن الآلة الصينية مهما أنتجت فإنها تنتج للصينيين أنفسهم، وإن أثر البلد على الكرة الأرضية سيتجلى حتماً على حياة العالم برغم كل شيء. فليست الصين بحاجة إلى ازدهار لاحدود له لكي تمد العالم بمصانع منافسة. وليس جميع سكانها، ولا معظمهم ولا ثلثهم ولا خمسهم، في حاجة إلى بلوغ الطبقة الوسطى في العالم لتطارد أسواقها – وإنما يكفي 50 مليون أسرة.

وليست الصين مضطرة لمجاراة أمريكا، أو أوروبا، أو اليابان في التزامها بالتعليم العالي أو في تأمين فرص لجميع تلاميذها المبدعين لمتابعة دراستهم في الجامعات؛ إذ تستطيع الصين أن تنتج عدداً هائلاً من المديرين، والمهندسين، والعلماء من المستوى العالمي بنظامها التعليمي القائم الذي يبعد كثيراً عن أن يكون شاملاً. وإن لم تستطع قيادة الصين أن تروِّض نفسها مع دِفْق المعلومات الحر الذي يرعاه النظام الرأسمالي، أو مع القوة المتصاعدة لطبقتها التجارية التي تزداد قوة، فإن شركات العالم التي تشق طريقها نحو بابها لن تتحول عنها، ولن تهجر مصانعها. وقد أظهرت أن الحزب الشيوعي الصيني يناسبها تماماً.

وباستثناء انبعاث ماو Mao، أو خوض حرب يُفَجِّرها يأسُ كورية الشمالية، أو تعالي تايوان، أو ضريبة أمريكية تفرض على كل ما ترسله الصين إليها، يصعب أن نرى الصين تنكمش عائدة إلى موقعها على خارطة العالم القديمة. وقد أشار توم سالر Tom Saler، الصحفي المتخصص بالشؤون المالية في صحيفة مِلووكي جورنال سِنِتِل Milwaukee Journal Sentinel إلى أن

إحدى وعشرين فترة ركود، وكساد اقتصادي، وصدمتين في سوق الأوراق المالية، وحربين عالميتين لم تستطع أن توقف نمو الاقتصاد الأمريكي خلال القرن الماضي من 118 بليون دولار (367 بليون دولار في سنة 2000م) إلى أكثر من 10 تريليون دولار. ويعني هذا، بالقيمة الثابتة للدولار، زيادة مقدارها سبع وعشرون ضعفاً. ويبدو لنا من جميع الظواهر أن الصين ستحقق نمواً مماثلاً في هذا القرن الجديد. وحتى إن لم يلحق الشعب الصيني، وسطياً، شعوب دول العالم الغنية، وإن استمرت منافسة الصين الرئيسة لكي تكون التكنولوجية الأفضل، فستبقى الصين دائماً منافساً مرعباً.

وليس ثَمَّة شك في أنه إن كان لبلد أن يَحِلَّ محل الولايات المتحدة في السوق العالمية فإنه الصين. وينصح جِفري ساكس Jefferey Sachs اقتصادي في جامعة كُولُومبِّيا Columbia University ومستشار دُوَل، ينصح الأمريكيين بالاستعداد لعالم يكون اقتصاد الصين فيه في سنة 2050م أكبر من اقتصادهم بأكثر من 75 بالمئة.

غير أن التسليم بنهضة الصين لا يعني الاستسلام للصين. وإنما يعني الاعتراف بحقيقة جديرة بالملاحظة تواجهنا جميعاً. فإن قلّة من الأمريكيين العاملين يدركون إدراكاً كافياً حقيقة نهضة الصين. وأنَّى لهم أن يفعلوا؟ فذلك شيء لم يحصل من قبل، ويجري الآن على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. وإننا في حاجة لأن نعرف الذي يجري اليوم في الصين – عاملاً فعامل، ومصنعاً فمصنع – ولماذا سيؤثر ذلك في الجميع؟.

وهذا، في مجمله، هو موضوع هذا الكتاب.